الحجاج وسعيد بن جبير

تمثيلية إسلامية قصيرة...

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي

أشخاص الرواية :

١ — الحجاج بن يوسف : طاغية الأمويين
٢ — سعيد بن جبير : المؤمن الصالح التقي
٣ — جنود وحاشية للحجاج .

« يبدو الحجاج على المسرح جالسا فى زهو وكبرياء ، وحوله بعض أتباعه ، ثم يدخل سعيد هادئا ساكنا ، وحوله الحرس ، وتلوح عليه علامات الهزيمة وإن ظل عزيزاً فى نفسه » .

الحجاج : « فى غلظة » ما اسمك ؟ ..

سعيد : « فى هدوء » اسمى سعيد بن جبير .

الحجاج : بل أنت شقى بن كسير .

سعيد : « وقد علا صوته » بل أمى كانت أعلم منى ياحجاج باسمى واسم أبى .

الحجاج : « مغيظا » شقيتَ ، وشقيت أمك ، وشقى أبوك .

سعيد : الغيب يعلمه غيرك يا حجاج ، سبحانه لا يُطلع على غيبه أحدا ، إنما يشقى مَن لعنه ربه وحرمه من رحمته ، وإنى أعوذ منك بما استعاذت به مريم بنت عمران حيث قالت :

« إنى أعوذك بالرحمن منك إن كنت تقيا »

الحجاج : « مهددا » والله لأذيقنك كأس الموت مريرة ، ولأوردنك حياض المنايا مترعة ... لك الويل ياشقى .

سعيد : إذا لقد أحسنت أمى حين سمتنى بسعيد ، فما أطيب الشهادة فى سبيل الله !...

الحجاج : بل ستموت ، ميتة المغضوب عليهم من الضالين والفاسقين ، فلأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى .

سعيد : « فى سكينة » لو كنت أعلم أن ذلك بيدك ياحجاج لاتخذتك إلهاً من دون الله ، ولكنه ربى جل شأنه ، هو مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الأمر كله ، وهو على كل شىء قدير ، وسيقال يوم القيامة : لمن الملك اليوم ؟ فيقال : لله الواحد القهار .

« تمر فترة صمت قصيرة »

الحجاج : « ينقل الحديث إلى موضوع آخر » ما قولك فى محمد بن عبدالله ؟...

سعيد : هو نبى الرحمة ، وهادى الأمة ، وكاشف الظلمة ، ومبيد الغمة ، وجامع الكلمة ، وسبب النعمة ؛ رسول رب العالمين ، إلى الناس أجمعين ؛ رسول ختم الله به الرسل ، وصدق به الوحى ، وأنقذ به من الهلاك والنقمة ، سيد ولد آدم ، خير من مضى ، وخير من بقى ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ...

الحجاج : فماذا تقول فى أبى بكر ؟ .

سعيد : إنه الصدّيق ، خليفة رسول الله ، ثانى اثنين إذهما فى الغار ، عاش حميداً ومضى مجيداً ، وأفضى إلى ربه على منهاج نبيه صلوات الله عليه ، لم يغير ولم يبدل .

الحجاج : فماذا تقول فى عمر بن الخطاب ؟ .

سعيد : عمر الفاروق ، خيرة الله وخيرة رسوله ، عاش مؤمناً ، ومضى حميدا على منهاج صاحبيه ، لم يغير ولم يبدل .

الحجاج : فماذا تقول فى عثمان بن عفان ؟ .

سعيد : المقتول ظلما ، المجهز جيش العسرة ، الحافر بئر رومة ، المشترى بيته فى الجنة ، ذو النورين ، صهر رسول الله على ابنتيه ، زوجهما له النبى بوحى السماء وقال : لو كان عندنا ثالثة لزوجناك ياعثمان ! . . .

الحجاج : فماذا تقول فى على بن أبى طالب ؟ .

سعيد : السيف الغالب ، والمجاهد الكاتب ، والعالم الخاطب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من أسلم من الفتيان ، وزوج فاطمة الزهراء البتول ، وأبو الحسن والحسين ، وهما سيدا شباب أهل الجنة يوم القيامة .

الحجاج : فماذا تقول فى معاوية بن أبى سفيان ؟.

سعيد : « متخلصاً من الإجابة » شغلتنى نفسى عن تصريف هذه الأمة ، وتمييز أعمالها ، وتتبع رجالها .

الحجاج : فماذا تقول عنى ؟ .

سعيد : لا داعى للكلام ياحجاج ! .

الحجاج : لا بد لك من أن تجيب .

سعيد : « واثقاً » إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى ، تبدى من نفسك أموراً تريد بها الهيبة ، وهى

تقحمك الهلكة، وسترد غداً على ربك يوم الحساب، فتعلم علم اليقين .

الحجاج : « يصرف الكلام إلى وجهة أخرى » فما قولك فى مآل على بن أبى طالب ، أفى الجنة هو أم فى النار ؟ .

سعيد : « متعجبا » لو دخلت الجنة وشاهدت أهلها لعرفت ، ولو دخلت النار ورأيت أهلها لعرفت ، فما سؤالك عن أمر قد غيب عنك وحفظ بالحجاب ؟

الحجاج : فأى الخلفاء أحب إليك، وأعز لديك وآثر عندك ؟

سعيد : أحبهم إلى أحسنهم خلقا ، وأرضاهم لبارئه ومولاه ، وأشدهم فرقا وخوفا من حسابه وعقابه .

الحجاج : فأيهم أرضاهم لخالقهم؟.

سعيد : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم .

الحجاج : فماذا تقول فى أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان ؟.

سعيد : وما بالك تسألنى عن امرىء أنت أحد أعماله ؟

الحجاج : « مهتاجا » وماذا تعنى يا شقى ؟...

سعيد : لست أدرى ماذا أعنى ، ولعلك تعرف ماذا أعنى.

الحجاج : سترى عاقبة هذا ... « يهدىء نفسه » فأى رجل أنا يوم القيامة ؟. وماذا يكون لى عند ربى ؟ .

سعيد : أنا أهون على الله من أن يطلعنى على الغيب ، وأنت أدرى بنفسك من غيرك ياحجاج .

الحجاج : « كالمتلطف » أبيت أن تصدقنى ياسعيد .

سعيد : بل لم أرد أن أكذب عليك فأمحق نفسى .

« يصمت الجميع قليلا »

الحجاج : « مستأنفاً » دع عنك هذا كله يا سعيد ، وأخبرنى لماذا لم تضحك قط فى حياتك ؟ .

سعيد : لم أضحك لأننى لم أر فى حياتى شيئا يضحكنى ؛ وكيف يضحك مهين ، مخلوق من طين ، والطين تأكله النار ، ومنقلبه إلى دار الجزاء ، واليوم يصبح ويمسى فى الابتلاء ؟ . كيف يضحك من خُلق من تراب ، وإلى التراب يعود ؟ .

الحجاج : فلماذا إذن أضحك ، ويضحك غيرى من الناس ؟.

سعيد : جلت قدرة ربى ، لم تستو منا القلوب ، وكذلك خلقنا الله أطواراً ، وجعل الاختلاف فى ألسنتنا وألواننا ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« يأمر الحجاج بالذهب والفضة واللؤلؤ ، فيجتمع بين يديه من ذلك قدر كبير ، يريد أن يفتن سعيداً به » .

الحجاج : أحضروا جانباً من الذهب والفضة « يحضرون ذلك »

سعيد : « باكياً » إن كنت جمعت هذ لتتقى به فزع يوم القيامة فحسن جميل ، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد.

« تبدو الحيرة على الحجاج ، ولكنه يملك نفسه ، فيأمر بتنحية الأموال إلى جانب ، ويطلب أدوات اللهو كالعود والناى ليضرب عليها » .

الحجاج : علىّ بالعود والناى ... هل رأيت شيئاً من اللهو يا سعيد ؟ .

سعيد : لا أعلم منه شيئاً يا حجاج .

« يأمر الحجاج بضرب العود ونفخ الناى ، فيبكى سعيد » .

الحجاج : مايبكيك يا سعيد ؟ هل أبكتك خفة الطرب ، أو روعة اللعب ؟.

سعيد : إنما أبكانى الحزن يا حجاج ؛ أما النفخ فذكرنى يوما عظيما : يوم النفخ فى الصور ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . . وأما العود فشجرة نبتت بحق، ولعلها قُطعت بغير حق، وأما هذه الأوتار فإنها من نفس ستحشر معك إلى الحساب ، فاخش الله يا حجاج .

الحجاج : « هائجا » ويلك ياشقى ؛ أتؤدبنى ؟.

سعيد : « بهدوء » لاويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة يا حجاج : « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

الحجاج : سأقتلك أيها الخارج المارق الشاق لعصا الطاعة.

سعيد : ذلك أمر إلى الله لا إليك ، إنه مالك الأسباب ورب الأرباب ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ،وما تدرى نفس بأى أرض تموت، إن الله عليم خبير . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . . إن الله عز وجل قد وقّت لى وقتا أنا بالغه ، فإن يكن أجلى قد حضر فهو أمر قد فرغ منه ، ولا محيص لى عنه ساعة من زمان وإن تكن العافية فالله أولى بها .

الحجاج : أنا أحبُّ إلى الله منك .

سعيد : ومن يدريك ؟. علم ذلك إلى ربى وربك ، إنه عليم بذات الصدور ، ولا يقدم أحد على ربه حتى يعرف منزلته عنده ، والله بالغيب أعلم ، إنه علام الغيوب ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى .

الحجاج : كيف لا أكون عند الله خيراً منك وأنا مع إمام الجماعة ، وأنت خارج مع إمام الفرقة ؟ .

سعيد : لست بخارج على الجماعة ، ولا أنا براض عن الفتنة ولكنه قضاء الله نافذ ، ولا مرد له ، وهو رأى ارتأيته ، وعقيدة اعتقدتها ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ألا إلى الله تصير الأمور .

الحجاج : ما رأيك فيما جمعت لأمير المؤمنين من الأموال والخراج ؟...

سعيد : حسن إن قمت بشرطه ، ووفيت بعهده ، حتى ينجو من تبعته أمير المؤمنين ، وتنجو أنت كذلك منه .

الحجاج : وما شرطه ... « مستهزئا » أيها الفقيه ؟ .

سعيد : شرطه أن تؤدى منه حق الله وحق العباد فيه ، أو تشترى لأمير المؤمنين به الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة .

الحجاج : فهل ترى ما جمعته طيبا ؟ .

سعيد : برأيك جمعته ، وأنت أعلم بطيبه منى ، فاستفت قلبك ونفسك ، وإن أفتوك ! .

الحجاج : « يجمع المال ملء يديه ويمدهما إلى سعيد » أتحب أن لك منه شيئا ؟ .

سعيد : « بإباء » لا أحب إلا ما يحبه الله .

الحجاج : ويلك ، ما أجرأك علىّ ، وما أحلمنى عنك ! . .

سعيد : « باطمئنان » قلت لك إن الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، وأولئك هم الخاسرون .

الحجاج : « مغيظا » اختر لنفسك قتلة أقتلك بها أيها اللعين .

سعيد : بل اختر أنت لنفسك يا حجاج ، فوالله لا تقتلنى اليوم قتلة إلا قتلك الله مثلها يوم القيامة .

الحجاج : « كالمتراجع » أفتريد أن أعفو عنك ؟ .

سعيد : « مستنكرا » ومن أنت حتى تعفو عنى ؟ . . إن كان العفو فمن الله ، أما أنت يا حجاج فلا براءة لك ولا مقدرة .

الحجاج : « مشيراً إلى أتباعه » اذهبوا به فاقتلوه . . .

« يحملونه إلى الخارج فيضحك سعيد » .

الحجاج : « يصرخ » ردوه . . . « لسعيد » ما الذى أضحكك أيها الشقى ؟ .

سعيد : عجبت من جراءتك على الله ، وحلم الله عليك ! .

الحجاج : وكيف تتعجب ، وأنا إنما أقتل من شق عصا الطاعة ، وفارق الجماعة ، ومال إلى الفرقة التى نهى الله عنها ؟.. « لأتباعه » اقتلوه . . . اقتلوه اضربوا عنقه !.. هنا أمامى . .

« يحضر الأتباع النطع ويفرشونه » .

سعيد : إنى أشهدك يا حجاج أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . احفظ هذه الشهادة حتى ألقاك بها يا حجاج ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الحجاج : « فى غيظ » اضربوا عنقه . . « يهمون به » .

سعيد : إذن دعونى حتى أصلى ركعتين « يتجه نحو القبلة ويقول » : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين .

الحجاج : اصرفوا وجهه عن القبلة ، ووجهوه إلى قبلة الذين تفرقوا واختلفوا بينهم بغيا وعدوانا ، وإثما وبهتانا ، فإنه من حزبهم بخروجه وعصيانه .

« يصرفونه عن القبلة »

سعيد : ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن واسع عليم . إنه الكافى بالسرائر ، الخبير بالضمائر ، وهو بكل شىء محيط .

الحجاج : لم نوكل بالسرائر ، وإنما وكلنا بالظواهر ، « للأتباع » كبوه على وجهه . . « يخفضون رأسه نحو الأرض » .

سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

الحجاج : اذبحوه . . اذبحوه . . اذبحوه . .

سعيد : إننى أشهدك يا حجاج مرة أخرى أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها منى يا حجاج ، حتى تلقانى بها يوم القيامة

عند أحكم الحاكمين . . . اللهم لا تمهله بعدى ، ولا تسلطه على أحد يقتله خلفى من المسلمين .

الحجاج : اقتلوه .. اقتلوه .. اقتلوا اللعين « يتكبكبون عليه » .

سعيد : اللهم لا تترك له ظلمى ، واطلبه بدمى ، واجعلنى آخر قتيل يقتله من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ،

الحجاج : « بغلظة » اقتلوه . . .

« يضربه أحدهم بالسيف ، فيسيل دمه غزيراً . فينظره الحجاج خائفا . وكأن رعدة قد مسته » .

الحجاج : ما هذا ؟ . . مابال دمه يسيل بغزارة لا ينقطع ؟ ما أكثر من قتلت من الناس ، ولكن ليس بينهم فى غزارة الدم مثل هذا القتيل ! .

أحد الأتباع : إن هذا الرجل — أيها الأمير — قد قتلته ونفسه معه ، فقد كان شجاعا لم يخف ولم يرتجف ، ولذلك كثر دمه وغزر ، لأن الدم تبع للنفس ، والذين كنت تقتلهم قبله كانت نفوسهم تذهب من الخوف والخشية ، فتقل دماؤهم عند قتلهم .

« الحجاج يهمهم كأنما قد استيقظ ضميره وأخذ يؤنبه » .

الحجاج : أبعدوا هذه الجثة اللعينة عنى ، احملوها واذهبوا بها بعيداً كيلا أراها . . يا إلهى ، ما هذه القشعريرة التى تشمل جسمى كأنها رعدة الهلاك .

« يحمل الأتباع جثة سعيد بن جبير ، والحجاج لا يقوى على النظر إليها من الهلع » .

صوت سعيد : « منخفضا رهيبا » ياعدو الله ، لماذا قتلتنى ؟ يا عدو الله فيم قتلتنى ؟ . . يا عدو الله بأى ذنب قتلتنى ؟ . . يا عدو الله يالعين ، آن لك ألا تنام .

الحجاج : ماهذا ؟ . ومن ذلك الذى يأخذ بخناقى ويناديني؟ ياله من شبح مخيف ! ، أنقذونى . أغيثونى .

صوت سعيد : يا عدو الله ، لماذا قتلتنى ؟...

« الحجاج يذهب يمينا وشمالا ، كأنما يريد النجاة من الشبح المخيف الذى يطارده ويناديه » .

صوت سعيد : يا عدو الله فيم قتلتنى ؟ . . يا . . .

« يتعثر الحجاج فيكبو . ثم ينهض فيكبو ، وهكذا »

الحجاج : ويلى . ويلى . ويلى . مالى ولسعيد بن جبير ، مالى ولسعيد بن جبير . . ياطول شقوتك ياحجاج .

« يقع على الأرض مذعوراً مرتعشا »

الحجاج : إلىَّ ياأجنادى . . إلىَّ يا أتباعى « يأتونه مهرولين » احملونى ، هذا شبح سعيد أمامى يطاردنى ، ويأخذ بخناقى ، ويمسك بتلابيبى ، وهذا شبح الموت مقبلا نحوى يريد افتراسى . . مالى ولسعيد بن جبير . . مالى ولسعيد بن جبير ؟... شقيت وشقيت أمك ياحجاج .

« يحمله الأتباع ويخرجون ما عدا واحدا منهم »

التابع : سبحانك اللهم ، أنت قيوم السموات والأرض ، جلت حكمتك ، وتعالت كلمتك ، تمهل ولا تهمل ، وأنت على كل شىء قدير . . . لقد بغى الحجاج وقتل الطيبين الطاهرين من عبادك وجنودك ، اتباعا للاثم والهوى ، ثم قتل سعيد بن جبير التقى الورع ، البكاء الشهيد ، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه ، وهأنتذا تنتقم لسعيد ، فتأخذ الحجاج أخذ عزيز مقتدر ، جزاء ما أجرمت يداه ، فسبحانك من منتقم جبار ، وعزيز قهار ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

« انتهت »

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

الرجل السعيد

. . . ألا إن السعيد هو من يعرف أن يرضى بحاله .

فليست السعادة هى الثروة ولا الاستمتاع بها .

وليست هى الجاه ولا آثاره .

وليست هى الحب ولا لذاته .

وليست هى العلم ولا نوره ولا منافعه .

وليست هى الجهل ولا جموده وجرائره .

وليست هى النباهة ولا كبرياؤها .

وليست هى الخمول ولا انزواؤه وتعطيله .

وليست هى الحكم ولا فى نظام الاستبداد ولا قدرته .

وليست هى الجمال ولا شفاعته .

وليست هى الظرف ولا خفته .

وبعيدة أن تكون هى العقل وحسابه ، إن لم تكن هى الخيال وأوهامه .

ليست السعادة شيئا من ذلك ، ولاهى كل ذلك بجمعه . بل السعادة ظن السعيد أنه سعيد .

من كتاب التأملات

أحمد لطفى السيد باشا